٢ - أحاديث المجـــالس

بين الثقافة والشـــعبية

بقية ما نشر فى العـــدد الماضى

وأول ما يعتمد عليه الشعبى فى حديثه المبالغة ، فالأقصوصة الصغيرة يجب أن تصير رواية كبيرة محكمة السبك ، رائعة الحبك ، متقنة العرض ، جذابة الأسلوب ، والخبر التافه يعتمد أن ينقلب حادثا جللا ونشرة طويلة من الأخبار ، والحبة الدقيقة سوف تضحى قبة عالية أو كوماً ضخماً متباين الحبوب ومن هذا نستنتج خصوبة التربة القصصية فى خيال العامة ورمزة الخيال فى ذهن أبناء الشعب . ولعلهم يشعرون بفراغ حياتهم من الخيال فيجنحون إلى إخصابه فى ابتكار القصص واختلاق الحواس والأطراف لكل خبر جديد أو حادث طارق أو قصة تتلى على مسمع من آذانهم ، ثم إن الشعبى فى حاجة إلى الحديث والكلام إذا اتخذ مجلسه بين جمع من الخلان أو زملاء العمل أو (جماعة) البيت فلابد من المبالغة والتهويل والتطويل وإزجاء الحواشى والأطراف لكل جديد من الحوادث والأقاصيص ليشغل المجلس بكثير من الكلام . وليجد المجلس كثيراً من الشوق ما إن حامت حول القصة أو الخبر إحاطة قصصية وسلاسة خيالية ، ولو نظرنا فى هذا الصدد نظرة أخرى نرى أن البيئة التى تخلو من المبالغة فى حاجة إلى مبالغة وتهويل لتسد النقص فى أرجائها ، وبيئة الشعب كانت تخلو من المبالغات والتهويلات ، ولكن الجدّة فى المبتكرات والحداثة فى الثقافات أحدثتا جواً جديداً يدعو إلى سد النقص كما يدعو إلى تهويل الحداثة وطلاء الجدة الابتكارية بطلاء المبالغة اعتماداً على غرابة هذه الجدة وما تدخل إلى النفوس من عجب وما تهيئه فى جو الأرواح من شغف وتشويق . . .

والخرافة ثانى شىء يعتمد عليه العامى فى كلامه وحديثه وهى فى ذهنه حقيقة واقعة ، وفى اعتقاده شىء لا يتطرق إليه الشك ولا يتداخله الريب ، والخرافات العامية قصص قصيرة يتمثل بها الناس فى حديثهم ويزجونها فى كلامهم وهم فى هذا الزج وذلك التمثيل لا يأتون بها متعمدة أو جافة أو لمجرد العرض بل تأتى مع السياق . ولها لذة فى إلقائها ولذة سماعها . أما لذة الإلقاء فلأن ملقيها يشعر بفخر فى نفسه وانتفاخ أوداج فى مظهره لأنه لاءم فى إلقائها بين صفة العرض وموافقة التدليل وتلاءم الحديث واتفاق النقطة المعينة ولأنها تدل على سعة إلمامه بكثير مما يدل على لباقته وكثرة اجتماعه بالناس وتحادثه معهم وحفظه للجيد منها وطريقته فى التوفيق بينها وبين مواقف الأحاديث العامية التى تستدعيها وتتوافق معها ، وأما لذة السماع فلأن المستمع يجد فيها نوعا من الغرابة ويجد من نفسه شوقاً إليها كما يجد فيها عاملا هاماً من عوامل جذب الحديث وتشويقه وجماله وبلاغته ولأنه يلقى فى نفسه وازعا للتصديق بها لأنها شىء قديم عرفه الأقدمون العاميون وتداوله أبناؤهم بعدهم ودافعا لاحترامها لأنها صيغة شعبية لها حرمة الأمثال العامية وحرمة أصولها وأصالة مكانتها من نفوس العامة فى شعبه المحبوب . . .

والنساء الشعبيات أكثر من الرجال فى التكالب على المبالغة فى الإيمان بالخرافة والتصديق بما جاءت به والإلمام بعناصر ما فيها كما أنهن أكثر منهم فى الجنوح إلى التهويل والميل إلى الإطالة والتطويل مما له أكبر الأثر فى جعل مجالسهن مملة كل الملل لمن لم يعتدها ومضيعة لكل الوقت لمن كان حديث عهد بها أو كانت حديثة الغمار فيها . . .

والشىء العجيب الذى نلاحظه أن هناك عبارات دائمة سائرة يتداولها العامة وخاصة النسوة فى حديثهن ، فكلما استرسلت إحداهن فى الحديث توقفت بضع ثوان لتقول : (نهايته !) ونهايته هذه عبارة عن كلمة (نهاية) والضمير

(البقية على الصفحة التالية)